مجلة "آفاق فكرية"

ص. ص. 583 - 597

رت م د: 2353 - 0367

رت م د إ: 2602-5507

التجربة الفنية والجمالية عند "جون ديوي"

The artistic and aesthetic experience of "John Dewey"

بن عروسة نعيمة

جامعة مصطفى إسطمبولي، معسكر (الجزائر)، مخبر حوار الحضارات والتنوع الثقافي وفلسفة السلم

naima.benarroussa@univ-mascara.dz

تاريخ الاستلام: 2023-01-29 **تاريخ القبول:** 2023-04-07 **تاريخ النشر:** 2023-05-05

ملخص:

نسعى من خلال هذه الورقة البحثة إلى الغوص والبحث في فلسفة الفن والجمال عند أبرز وأهم رواد الفلسفة البراغماتية، واقفين على أهم نقاط لاقت وشغلت اهتمام الفيلسوف الأمريكي البراغماتي جون ديوي، كونه فيلسوف معاصر حاول الاعتماد على التجربة والخبرة وتوظيفهما في أعماله الفلسفية والفكرية، وذلك من خلال نظرته للحياة وللفن والجمال، حيث حاولنا من خلال هذا البحث تسليط الضوء أكثر حول نظرية الخبرة في الفن عنده، ما أهمية هذه النظرية عنده؟ وما ضرورة الخبرة والتجارب السابقة في البحث في فلسفة الفن والجمال؟ وكيف ساعدت هذه الخبرة للأفراد في التأقلم مع الواقع والعمل على استمرارية الوجود وانسجامه من وجهة نظر "ديوي".؟

كلمات مفتاحية: الفن، الجمال، الخبرة، التجربة، التعبير.

Abstract:

Through this research paper, we seek to dive into and research the philosophy of art and beauty at the most prominent and important pioneers of pragmatic philosophy, standing on the most important points that caught and occupied the interest of the pragmatic American philosopher John Dewey, as a contemporary philosopher who tried to rely on experience and expertise and employ them in his philosophical and intellectual works, as well as through His view of life, art and beauty, where we tried through this research to shed more light on the theory of art experience as well as his experience of beauty, what is the difference between them, and what is the necessity of experience and previous experiences in researching the philosophy of art and beauty? And how did this experience help individuals to adapt to reality and work on the continuity and harmony of existence from Dewey's point of view?

Keywords: Art, beauty, experience, experience, expression.

مقدمة:

اهتم الفكر الغربي والفلسفة بصفة خاصة بربط العلاقة بين الفكر الفلسفي والفني، وزاد الاهتمام والفضول والتطلع إلى المحتوى الفني وما يحمله من جماليات لاقت استحسان الفلاسفة والمفكرين المعاصرين، وبرزت عدة توجهات نادت بالرجوع للفن وتبني فلسفته، فكانت نتيجة ذلك بروز فلسفة الفن والجمال عند الكثيرين منهم، ممن حاولوا ترك بصمتهم الفنية والفلسفية، فكانت لهم عدة أعمال ومؤلفات في هذا المجال، تاركين انطباعاتهم ورؤاهم الفنية التي ساهمت بدورها في الكشف عن الذوق الفني والجمالي عند العديد من الفلاسفة المعاصرين، كما زادت من إثراء المجال الفكري والفلسفي بمزيد من الجماليات من خلال الإشادة بدور الفنون وأهمية التذوق الجمالي لها.

ظهرت الفلسفة البراغماتية في الولايات المتحدة الأمريكية منادية إلى تبني فكرة التجربة والمنفعة، وقد حاول روادها معايشة الواقع أكثر وتجربته بعيدا عن الفلسفات العقلية المثالية، وزاد اهتمام أعضائها كذلك بالفن وربطه بالخبرة الجمالية للإنسان، حيث لاقى مفهوم الخبرة اقبالا واسعا بين رواده الذين أولوا اهتماما خاصا بهذا المصلح والمفهوم الجديد، وحاولوا توظيفه واظهاره من خلال نظرتهم وفلسفتهم للحياة وللفن وللجمال. ويعتبر "جون ديوي" من أهم وأبرز رواد المذهب البراغماتي، والذي نادى بفلسفة الخبرة والتجربة محاولا توظيفها وإسقاطها على جميع مشاريعه الفكرية والفلسفية بما فيها فلسفة الفن والجمال عنده. فالخبرة بالنسبة "لديوي" تسهل حياة الأفراد وتمنحهم القوة على مجابهة الصعاب وتقلبات الحياة اليومية، وبما أن الفن عند "ديوي" ملازم للحياة وللواقع رأى أنه من الواجب توظيف الخبرة في مجاله ودراسته استنادا إلى التجارب الفنية السابقة للإنسان وللفنان بصفة خاصة، فكانت للفيلسوف "ديوي" عدة آراء ومؤلفات تخص هذا المجال، بدءا بدراسة الفن واعتباره خبرة وجزء من حياة الأفراد، إلى اسقاط الأحكام الجمالية عليه استنادا كذلك للخبرة الجمالية، كما اهتم الفيلسوف بعلاقة الفنان أي المنتِج بالمُتذوق والمُتلقي للفن، محاولا إبراز العلاقة بينهما والدور الذي يلعبه كليهما تجاه الآخر، كما سعى "ديوي" من خلال بحثه في الخبرة الفنية والجمالية إلى إبراز الانسجام والتكامل بين البيئة وما توفره من إمكانات، مع الفنان وما يختلجه من شعور وانفعالات.

حاولنا من خلال هذا البحث تسليط الضوء على عنصرين أساسيين ألا وهما: الخبرة الفنية والخبرة الجمالية عند "جون ديوي" (John Dewey1859-1952)، كيف كانت فلسفته الفنية

والجمالية، وأين يكمن الجمال عنده؟، وهل استطاع "ديوي" التأسيس للخبرة الفنية والجمالية في الفكر الفلسفي المعاصر؟

ومن فرضيات البحث:

- رفض "ديوي" لنظرية التصور الانعزالي للفن، فالفن عنده تابع للحياة اليومية.
- الفن يعتمد على الخبرة والتجربة بعيدا عن النظرية المثالية التقديسية له.
- يهدف الفنان من خلال فنه إلى كسب منافع مادية عملية.

من أهداف هذا البحث: البحث عن ركائز فلسفة الفن والجمال عند أحد أهم أعمدة الفلسفة البراغماتية، والوقوف على تحليلاته وآرائه فيما يخص ربط الفن بالتجربة والخبرة الجمالية.

1. الخبرة في الفن:

1.1. التصور الانعزالي للفن:

رفض "جون ديوي" فكرة التصور الانعزالي للفن معتبرا إياه جزءا لا يتجزأ من حياة الأفراد، "فديوي" من خلال بحثه في فلسفة الفن والجمال أراد تحطيم الأفكار السابقة التي نادى بها بعض الفلاسفة الذين نظروا للفن على أنه غاية في حد ذاته، لا يجب ربطه بالحياة الواقعية ولعل أبرز مثال عن ذلك "كانط" الذي نادى بفكرة "الفن من أجل الفن" ونفس الأمر أيده "شوبنهاور" من بعده، غير أن الملاحظ على فكر "ديوي" أنه ينظر للفن باعتباره خبرة، فهو خبرة للحياة العادية لا يمكن استبعاده من مجال الحياة العامة أو حياة الجماعة "فالريش المتموج والملابس المزخرفة والحلي الزاهية المصنوعة من الذهب والفضة أو من الزمرد واليشم، كان كل هذا داخلا في مضمون الفنون الجميلة " وهو يبين لنا أيضا فني الرقص والتمثيل الصامت لم ينتعشا إلا لوصفهما من الطقوس والاحتفالات الدينية..." (ديوي، 2011، ص.12). ويرجع "ديوي" في التأسيس لنظريته الفنية الجديدة إلى بداية ارتباط الفن بحياة الأفراد منذ الأزل إلى يومنا هذا، لذلك يلح على رفض الانفصال بين التجربة الجمالية وعالم الحياة المعاشة" وهذا ما يسميه ديوي بـ "التصور

الانعزالي للفن" الذي لا ينفك الفيلسوف برفضه والإشارة إلى عدم وجوبه، وعدم تطبيقه على المحتوى الفني والواقع.

فالفن عنده مرتبط ارتباطا وثيقا بالواقع العيني فكل ما نشاهده من وقائع يومية إلا وفيها صبغة جمالية فنية تميزها، فوجود الفن تابع لوجود الأفراد والحياة اليومية العادية ولولاهم لما كان هناك فن يعبر عنهم، فهم أساسه والسبب وراء كل إلهام وإبداع فني، فالفن هنا كامن في البيئة المعاشة وليس بمعزل عنها، ولهذا كان الفن هو نتاج الخبرة وهو تعبير عنها، وجميع "النظريات عن الفن والجمال التي تحاول فصل موضوعات الفن عن الخبرة الإنسانية ستفشل حتما في الوصول إلى تفسير صحيح عن سر الإعجاب بالجميل" (الأهواني، 1968، ص.143). فالجمال هنا كامن في كل عمل فني عيني يقوم به الإنسان من خلال معايشته أو تجربته لحادثة ما، فيتكون لدى الفرد خبرة جمالية من خلال الحياة الواقعية واليومية "وإذا كان الفن يقوم على الإيقاع والائتلاف والانتظام والترتيب والتوازن فهذه المعاني كلها إنما نشأت من وجود الكائن الحي في البيئة، إنه توازن بين طاقات الكائن الحي وبين الظروف التي يعيش فيه" (الأهواني، 1968، ص.144). فمن خلال المعايشة والتفاعل مع البيئة يأتلف هذا العالم وينتظم ليشكل لنا لوحات فنية يتذوقها ويحس بوجودها كل فنان حالم، مؤكدا على وجوده الفعلي والمجسد من خلال هذه الأعمال الفنية والتي تختلف وتتنوع من فنان لآخر، ليظهر فن الرقص، أو فن الرسم، أو فن النحت أو غيرها من الفنون التي تعبر عن الذات الإنسانية ومدى ارتباطها بالتجربة اليومية والبيئة" فالتنظيم والتأليف بين عناصر الموضوع هما أهم عوامل إحداث الطابع الجمالي لأي خبرة، وهما في الخبرة الجمالية أوضح من أي خبرة أخرى، فالفنان بمزاولته عمله الفني يعيد تنظيم وتوضيح وتبسيط المادة وكذلك يشارك المتذوق للفن الفنان في هذا العمل لأنه يعيد في ذاته عملية التنظيم والتأليف (حلمي مطر، 2013، ص.77).

2.1. رفض المثالية في الفن:

رفض "ديوي" النظر للفنان نظرة تقديسيه متعالية مترفعة عن الواقع، ويلح في النظر إليه على أنه إنسان كباقي البشر، ما يميزه فقط الإلهام وحبه وتطلعه للعمل الفني والبحث في قضايا الجمال، ماعدا هذه الخصائص البسيطة يبقى الفنان كغيره من البشر، هو إنسان مرتبط بواقعه وحياته اليومية ومندمج فيها، كما أكد "ديوي" على أن للفن دورا هاما في تحقيق المكاسب رافضا

فكرة "الفن للفن" فقط، ملحا على عدم فصل الفن عن الحياة النفعية والمادية الإنسانية، بل دعا إلى اعتبار الفن نشاطا إنسانيا متميزا، يسعى من خلاله الفنان إلى تحقيق منافع مادية عملية، وهنا تتضح وتبرز فلسفة "ديوي" البراغماتية من خلال اعتبار الفن وسيلة ونشاط يقوم به الإنسان من أجل الكسب والمنفعة، فالفن هنا في خدمته وليس العكس "ويرى ديوي أن الخبرة الجمالية ليست خبرة تستمد من المتاحف والمعارض والمكتبات، وإنما توجد الخبرة الجمالية في سياق الحياة اليومية والعملية" (حلمي مطر، 2013، ص.77) فالفن هو نتاج صراع الإنسان أو الفنان بوجه خاص مع البيئة التي لا تقدم مواد خام على أبسط وجه بل على هذا الفنان أن يحسن استغلال هذه الموارد ويكيفها مع مقتضيات واقعه وانفعالاته عن طريق التجربة والخبرة، فالفن بالنسبة له مرتبطا ارتباطا وثيقا بالتجربة وبالملموس، ليس مجرد فكرة عقلية منزهة، حيث يسعى من خلاله الفنان إلى التأقلم والتعايش مع المحيط والبيئة وتسخيرها في خدمته، ويبقى هذا التفاعل بين الإنسان ومستجدات واقعه ومحيطه مستمرة باستمراره لا تعرف الانقطاع حيث يحصل تفاعل واندماج الذات في العالم وانصهارها به.

يقول ديوي: "ولن يتأتى لنا أن نفهم الفن أو أن نقف على وظيفته في صميم الحضارة، لو أننا جعلنا نقطة انطلاقنا في البحث هي كيل المديح له، أو لو أننا اقتصرنا منذ البداية على دراسة الآثار الفنية الكبرى المعترف بها بأنها كذلك. وإنما ينبغي للنظرية التي تلتمس الفهم، أن تلجأ إلى طريق غير مباشر فترتد إلى الخبرة العادية، حتى تقف على الصبغة الجمالية التي تنطوي عليها مثل هذه الخبرة." (ديوي، 2011، ص.22) وهنا يؤكد "ديوي" على العلاقة الوطيدة بين الفن والحياة من جهة، وبين الخبرة الجمالية والحياة العادية للإنسان من جهة أخرى، فهو قد ربط الخبرة الجمالية في الفن بالحضارة الإنسانية مشيرا إلى أن تقدم أي حضارة ورقيها وازدهارها مرهون بمدى تطور وازهار الفن فيها، وبالتالي يكون الفن أساس الحضارة والتقدم، وأن انعدامه يدل على فشلها وتخلفها وتراجعها، لذى وجب على الإنسان ككل الاهتمام بهذا الفن وجعله ملازما للحياة اليومية وللواقع البشري بعيدا على النظرة المثالية أو العقلية التي تحاول إقصاء التجربة الجمالية وبالتالي إقصاء الفن والقضاء على كل صبغة فنية جمالية، وجعل الحياة جامدة خالية من كل إبداع أو صور جمالية، وذلك حين "يجعل النظر العقلي نقطة انطلاقه على الأعمال الفنية المسلم بها. فهنالك لا بد من أن تكون الظاهرة الجمالية قد عزلت في إطار قائم بذاته، ولا بد من أن تكون الآثار الفنية قد أقصيت في ركن منفرد على حدة، بدلا من أن ينظر إلها على أنها تمجيد معترف به

من حيث هو كذلك لأمور التجربة العادية" (ديوي، 2011، ص.22) "فديوي" يصر على أن أهمية الفن تكمن في اتحاد العقل بالتجربة والخبرة الإنسانية معا لكي نصل إلى الغاية المنشودة للفن وهو خلق توزان في العالم والوجود والسعي إلى التقدم الحضاري، ونبذ الجمود والركود الفكري والفني، وبالتالي الشعور بالرضى والارتياح والطمأنينة عقب إنتاج أي صور فنية وهذا ما يزيد في قيمتها الجمالية ويملأ نفس المنتج والمتلقي والمتذوق للفن شعورا أكثر جمالا ولذة تجاه هذه الصور الجمالية.

2. نظرية التعبير:

1.2. الانفعال:

سعى "ديوي" إلى التعبير عن عملية الخلق الفني من خلال التركيز على خاصيتين أساسيتين ومهمتين تدخلان في عملية خلق الصور الفنية مشيرا في بداية الأمر إلى: الحالة النفسية المتأهبة والمستعدة للعمل الفني والمتمثلة في عملية الانفعال ومجمل الحالات النفسية الداخلية الدافعة إلى التعبير الفني، ليقابها: البيئة التي تساعد هذا الانفعال من خلال توفير المواد الأولية والمواد الخام من أجل عملية الإبداع وتجسيد الفكرة والانفعال في صور فنية جمالية، بحيث يكون عمل الإنسان هنا من خلال تطويع هذه المواد وتكييفها وتسخيرها في خدمة انفعاله والتعبير عن الأعمال الفنية على أكمل وجه وأرقى صورة جمالية " وإذا كانت ضروب الدفع هي بمثابة بدايات الخبرة التامة ، فذلك لأنها تنبعث عن الحاجة، أعني عن الجوع والعوز القائمين لدى الكائن الحي ككل، واللذين لا سبيل إلى إشباعهما إلا بإقامة علاقات محددة (علاقات فعالة أو ضروب تفاعل) مع البيئة." (ديوي، 2011، ص.102) ويلح "ديوي" دائما في عملية التعبير على هذين العنصرين (التفاعل والبيئة) من أجل التعبير والخلق وإنتاج صور فنية جمالية، معتبرا إياهما من مقومات العمل الفني والذي لا يصلح إلا بهما، وأن أي عمل فني خالٍ من أحدهما يفقد قيمته، لذا وجب اتحادهما معا من أجل تذليل الصعاب الموجودة في البيئة وتكييفها لتخضع وتعبر عن الانفعال "وليست الحاجة المتجلية في الدوافع الملحة التي تتطلب التحقق من خلال ما توفره البيئة وحدها، سوى مجرد اعتراف صريح أو إقرار دينامي باعتماد الذات على بيئتها" (ديوي، 2011، ص.102). وكل هذه العمليات التي ينتقل فيها العمل الفني من كونه فكرة إلى التفاعل مع البيئة، إلى الظهور والخروج على شكل صورة فنية يطلق عليها "ديوي" بعملية التعبير أي إنتاج الصور الفنية، فمن

خلال هذا الاتحاد بينهما تدرك الذات قيمتها كذات فاعلة متحدية متجاوزة للعوائق، "فديوي" هنا ينكر ويستهجن البيئة السهلة الخاضعة التي تبسط نفسها أمام الانفعال أو الفنان ككل، ويعتبر أن هذا العمل الفني عملا ناقصا ينقصه التحدي والمقاومة، فهو يؤكد من جهته على أن دور الفنان الحقيقي هو تكييف البيئة وتوجيه الانفعال ليتلاءما مع بعضيهما، ومن ناحية أخرى يرفض الانفعال السهل الذي لا يتلقى صعوبات ويسهل التعبير عنه، يقول في هذا الشأن: "ولو قدر لبيئة ما أن تكون وفي كل مكان مواتية تماما لتنفيذ دوافعنا، لكان من شأن هذه البيئة أن تضع حدا أمام نمونا...ولو قدر للدافع أن يجد الطريق ممهدا دائما أمامه وأن يمضي في سبيله باستمرار إلى الأمام لشق طريقه دون تفكير" (ديوي، 2011، ص.103). وبهذا التضافر بين المواد الخام في البيئة، وكذا النفس المتهيأة والمستعدة للخلق وللإبداع، والمتمثلة في الانفعال ينشأ عندنا التعبير في أجمل صوره، أي انتاج عمل فني متكامل يجمع بين ما هو نفسي ووجداني، مع ما هو بيئي متكيف ومتحول أو خاضع للانفعال.

إن عملية التعبير عند "ديوي" من العمليات المعقدة فهي لا تقدم نفسها للفنان بشكل بسيط بل تدخل فيها عدة وظائف نفسية وعقلية من خلال التحليل والتقييم والتمييز والتذوق، ليليها انتقاء المواد وحسن توظيفها وتكييفها مع الانفعال، إذن فعملية التعبير هي نتاج عمل متأصل بين الذات الحالمة والساعية للتغير والباحثة عن مواطن الجمال مع البيئة المستعصية المواجهة لهذه الذات التي تسعى من جهتها إلى تكييف البيئة وتذليل الصعوبات فيها، للخروج بعمل فني أو صور جمالية متناسقة ومتكاملة" والسبيل الأوحد لشعور الدافع بطبيعته وإدراكه لغياته إنما يتهيأ للذات من خلال العوائق التي تتغلب عليها" (ديوي، 2011، ص.103). حيث يلعب الإنسان دوورا أساسا وعنصرا فعالا ومهما من خلال التفاعل والانسجام الحاصل بينه وبين البيئة، وهذا ما يؤكد على الترابط الشديد بين الذات الفاعلة المبدعة والفنانة، وبين موضوع البحث والمادة الخام وهو العالم بكل ما يوفر من لوازم وحاجات تسهل عملية الإبداع، فالفن يعمل على توحيد الذات الإنسانية بالعالم والقضاء على العزل الذي تعاني منه الذات، وذلك من خلال جعله مندمجا في المجتمع معبرا عن انفعالاته وأحاسيسه من خلال الفن والخروج به إلى المواجهة والقضاء على التفرقة والعزلة بين ذات الفنان والموضوع من جهة، وبين الفنان وباقي أفراد المجتمع من جهة أخرى، وبالتالي تحدث الألفة ويغدو الفن أكثر قبولا وترحيبا من قبل البيئة والمجتمع والحضارة ككل بوصفه أفضل معبر عنها" وكل هذه الحقائق التي أسلفنا ذكرها، إنما هي

الدليل الساطع على أن واسطة التعبير في الفن ليست موضوعية ولا ذاتية ، وإنما هي مادة لخبرة جديدة قد تحقق فيها التآزر بين "الذاتي" و"الموضوعي" بحيث لم يعد لأي واحد منهما وجود مستقل قائم بذاته (ديوي، 2011، ص.483). ولعل هذا التآزر والموازية بين الذاتي والموضوعي من أهم الغايات المنشودة التي ما فتأ يلح عليها "ديوي" في أغلب مؤلفاته الفنية والجمالية، ساعيا من وراء ذلك إلى إزالة اللبس والتفرقة بين الذات الإنسانية الحالمة والمبدعة وبين المواد الخام والبيئة وجعلهما كلا واحدا من خلال النظر إلى النتيجة والإنتاج الفني المجسد في صور فنية وجمالية تشمل وتحوي على ما هو إنساني انفعالي، عاطفي، مع ما هو موضوعي خارجي.

3. المحاكاة الأرسطية والفن من وجهة نظر "جون ديوي":

1.3. نقد المحاكاة الأرسطية:

كانت نظرية "المحاكاة" الأرسطية محلا للجدل والتحليل من طرف "جون ديوي" وبعض الفلاسفة الآخرين، وكان "لديوي" بعض الآراء والتحفظات إزاء نظرية المحاكاة الأرسطية في الفن، فكان تارة يرفض بعض النقاط منها مشيرا إلى البديل وإلى رأيه الخاص فيها، وتارة يساند بعضها وفي ما يخص بعض الجوانب الإيجابية فيها، وللوقوف أكثر على تحليل وجهة نظر "ديوي" للمحاكاة الأرسطية اعتمدنا على مؤلفه "الفن خبرة" لما يحويه الكتاب من تفصيل وتحليل لمجمل آراء وانطباعات "ديوي" حول فكرة المحاكاة في الفن عند "أرسطو" محاولين الوقوف عند أبرز وأهم نقاط اتفاقه واختلافه معه.

بداية تطرق "ديوي" لفكرة المحاكاة في الفن ككل، مشيرا إلى أن الفن لا يحاكي كما قالها الفلاسفة اليونانيون القدامى (أفلاطون، أرسطو)، بل أن الفن ينتج ويجرب، يحاول الكشف عن مواطن الغموض وسر الجمال وإخراجها للمتلقي لتذوقها وتجربتها هو الآخر، فهو يسعى إلى غلق فجوات العالم والبيئة وسد الثغرات وإضفاء صفة الجمال على الأشياء من خلال التجريب، وهذا ما ينتج عنه تناسق وجمال في الطبيعة والعالم." ولا بد لهذه العملية من أن تستمر إلى أن يتولد عنها تكيف متبادل بين الذات والموضوعات، وعندئذ تبلغ هذه الخبرة الخاصة نهايتها". (ديوي، 2011، ص.78). فالفنان من وجهة نظر "ديوي" يحاول حل مشاكل المجتمع والبيئة الإنسانية وتكملة الناقص فيها من خلال الخبرات السابقة وتجاربه اليومية المستمرة، وهو بفنه هذا يساهم في تكملة النقص الذي يعاني منه البشر والطبيعة معا، فالفن يعمل دائما على إزالة اللبس والغموض

الموجودان في البيئة الإنسانية ككل من خلال انتاج صور فنية تساعد على فهم هذا الغموض والقضاء عليه من خلال التجربة والخبرة اليومية، وبهذا يندمج الفن والفنان في الحياة وتستمر بفضل عمل الفنان الدؤوب، كما يعيب "ديوي" على الذين اخطأوا في فهم نظرية المحاكاة الأرسطية معتبرين أنها وصفا لما في الواقع، والحقيقة أن المحاكاة الأرسطية حاولت أن تعتمد على ما يمكن أن يحدث أو متحمل الحدوث أي تنظر لما بعد الواقع، فالفن عنده يحاول تصحيح أو إكمال لم تستطع الطبيعة تكملته، وهذه النقطة بالذات نالت استحسان واتفاق "ديوي" مع" أرسطو" متفقا معه على أن الفن يحاول التعبير عن الكليات وليس الجزئيات واسند "ديوي" في عرض رأيه هذا على كلام "أرسطو" حين قال: "ليس من شأن الشاعر أن يخبرنا لما قد يحدث، بل إن عليه أن ينبئنا بذلك النوع من الأشياء التي يمكن حدوثها، أعني أنه يحدثنا عن الممكن، سواء أكان ضروريا أم متحملا" (ديوي، 2011، ص.478). فالفن عند "ديوي" هو الآخر يعبر عن الممكن ويسعى إلى تجربة عوالم جديدة وخلق عالم فني مغاير عن العالم الواقعي، وذلك من خلال تكييف وتسخير البيئة وجعلها تتوافق وتنسجم مع الذات، وذلك من خلال الاعتماد على التجربة والخبرة ، وجعلهما أساسا الفن وعماده.

اعتَبرت النظرة التقليدية الأرسطية قديما أن الفن محاكاة وأن الذات الإنسانية هي مجرد واسطة بين الموضوع الخارجي والفن، حيث يصبح هذا الأخير مجرد تمثيل أو محاكاة لأمر معين وهذا ما رفضه "ديوي" فالفرد أو الفنان عنده ليس واسطة تنقل وتصور وتحاكي فقط، وأن الفن ليس مجرد محاكاة بل ينظر للفنان على أنه ذات فاعلة ومحورا أساسيا في عملية الإنتاج الفني، وأن لهذه الذات مقومات وحوافز تجعلها هي محورا للعمل الفني وعماده، من بينها الإحساس والادراك والتمييز والتجربة، فالفن الذي يقصده "ديوي" هو الفن الذي يهتم بالكلي وليس بالجزئيات، غير أنه اتفق مع "أرسطو" كذلك في كون الفن يعتمد على المحتمل والذي أشار إليه ومثله "أرسطو" بالشعر الذي يحاكي ما يجب أن يكون وليس بكائن أي محتمل الإمكان، وبالتالي الاهتمام بالصورة الكلية العامة والشاملة لا الجزئيات، ولعل هذا الرأي هو ما جعل "ديوي" يقترب من "أرسطو" قائلا في ذلك: "والحق أن أرسطو يعتبر الأشياء ضرورية أو محتملة حين تتجلى على شكل أجناس أو أنواع لا على شكل جزئيات، وهناك أنواع هي بمقتضى طبيعتها الخاصة ضرورية وأزلية وأبدية ، في حين أن هناك أنواعا أخرى هي احتمالية فقط" (ديوي، 2011، ص.478). كما يلح "ديوي" على أن عمل الفنان الذي يهتم بالجزئي والعرضي، يبقى عملا ناقصا لا

يرقى إلى درجة الفن الكامل، لأن هدفه وغايته جزئية تهتم بالذات الخاصة للفنان، في حين أن الفن القائم على وصف الكلي عند "ديوي" هو الفن الذي يستحق أن نطلق عليه فنا حقيقيا قائما بذاته، لاحتوائه على قومات عامة وكلية، وليس مجرد عرض أو تجربة فردية خاصة.

2.3. الخبرة تسبق المادة:

رفض "ديوي" رأي "أرسطو" القائل بأن الأشياء والموضوعات تسبق الخبرة، فالكلي عنده ليس سابق عن التجربة، فالموضوعات المشتركة التي يراها «أرسطو" موجودة في الطبيعة معتبرا إياها سابقة للتجربة الذاتية، إنما هي في الأصل نتاج تجارب الأشخاص وتعاقب الخبرات حولها " بحيث إن أي شيء يشارك فيه عدد من الأشخاص لا بد لهذا السبب عينه من أن يكون عاما مشتركا، وكلما كان هذا الشيء أكثر تأصلا في ضروب النشاط الفاعل والقابل التي تكون الخبرة، كان أكثر عمومية وأوسع شمولا" (ديوي، 2011، ص.481). كما يعتبر "ديوي" أن الفن من أكثر الوسائل البشرية التي تعتمد على الخبرة والتجربة لأنه يقوم على العمل المشترك بين الأفراد والأشخاص، وبالتالي يصبح عمل الفنان بحد ذاته بداية لتجارب أخرى ينقلها لغيره، وهو بدوره يعتمد على ما كان سابقا ومشتركا ومتداولا بين الأفراد والفنانين، وأن كل الأشياء الموجودة في البيئة مهما كانت تبدو جزئية ومنفصلة إلا وفيها خضوعا للكل وللمشترك، لأنها في تحاور وتواصل دائم مع الكائن الحي الذي يجعلها مشتركة عن طريق تقويمها وتسخيرها من خلال تجاربه وخبراته، فكان الفن بهذا من أبلغ وأكثر النشاطات الإنسانية إلماما بهذه المهمة من خلال جعل الجزئي كلي، وتطويعه وتحويله إلى مشترك، وبهذا يكون "الفن هو أشد وسائل الاتصال الموجودة قوة وفاعلية. ولهذا السبب فإن وجود العوامل المشتركة أو العامة في الخبرة الواعية إن هو إلا مجرد أثر من آثار الفن" (ديوي، 2011، ص.482). وكون الفن من أكثر الوسائل اعتمادا على الخبرة والتجربة، فهو بالضرورة يعتمد على إحدى المقومات الفاعلة في بقائه وازدهاره، ألا وهي الجمع بين الجانب الذاتي النفسي الانفعالي للذات البشرية، وبين الجانب الموضوعي الخارجي، وأن التفاعل بين هذين الجانبين هو من يجعل من الفن فنا حقيقيا تجريبيا قوامه الخبرة والتجربة.

نوه "ديوي" إلى أن عيب النظرية التمثيلية راجع إلى كونها تعتمد بالدرجة الأولى على مادة العمل الفني وما هو موضوعي، في حين إقصاء الجانب الذاتي الانفعالي الإنساني، وتغييب كلي للذات الفاعلة والمنتجة التي لولاها لبقيت المادة الموضوعية مجرد جزئيات لا قيمة لها، إلا بتدخل

الذات الإنسانية الفاعلة التي تحولها وتكيفها متعمدة على خبراتها السابقة وعن تجاربها الواقعية، وبالتالي تعمل على تعديل وتحويل المادة وربطها بالحالات النفسية والانفعالية لتصل إلى نتيجة وهي الخروج بفن حقيقي قائم على مقومات وضوابط حقيقية وأساسية وهي: الجمع بين الذاتي والموضوعي "وهنا نلتقي بدليل آخر على أن واسطة التعبير ليست ذاتية ولا موضوعية، وإنما هي خبرة يندمج فيها كلا العنصرين بحيث يتكون من اندماجهما أو تكاملهما موضوع جديد"(ديوي، 2011، ص.484). ومن خلال هذا الانسجام توصل بعض النقاد وكذا الفنانين إلى اعتبار أن الفن نوعا من المعرفة الراقية لأنه يبحث في باطن الأشياء، وفي عمقها ولا يكتفي فقط بالسطحي أو الجزئي، وأصبح ينظر إليه على أنه يفوق معارفنا اليومية العادية، فهو يسعى إلى التنبؤ لمعارف مستقبلية لم نصل إليها واقعيا، غير أن "ديوي" يرجع كل هذه المعارف والآراء المثنية على الفن إلى دور الخبرة والتجربة السابقة فيه، وأن انعدام هذين العنصرين يجعل من الفن معرفة ناقصة تحتاج إلى خبرات جمالية تزيد من إنتاجه وتماسكه ووضوحه. "وإنه لمن الحق أيضا أن نقول عن الفن من حيث هو خبرة: إنه ليس للطبيعة وجود ذاتي ولا موضوعي، كما أنها ليست فردية ولا كلية فضلا عن أنها ليست حسية ولا عقلية، وإذن فإن دلالة الفن بوصفه خبرة إنما هي دلالة لا نظير لها بالنسبة إلى مخاطرة التفكير الفلسفي." (ديوي، 2011، ص.499)

4. الحكم الجمالي:

1.4. التقدير الجمالي للفن:

يطلق الانسان أحكاما جمالية تجاه مواضيع فنية ما، وهو بهذا يساهم في إبرازها وإخراجها من كونها مجرد لوحات أو وموضوعات إلى ساحة الفن والجمال من خلال إطلاقه أحكاما ذوقية تجاهها ساعيا لتقديمها للمتلقي على أنها مواضيع فنية جمالية، ولاحظنا أن "ديوي" كثيرا ما يربط كلمة جمال "بالخبرة" وكذا التذوق أي يربطها دائما بالمتلقي أو المتذوق، كما أنه أشار من خلال كتابه "الفن خبرة" إلى عنصرين أساسين في عملية الحكم الجمالي وهو المنتج للصور الفنية أو الفن، والملتقي الذي يتلقى هذا الإنتاج الفني من خلال تذوقه تارة ونقده تارة أخرى، طارحا انطباعه نحوه، فالفنان هنا يبقى تحت سلطة هذا المتذوق والمتلقي الذي يصدر أحكاما إما بالسلب أو الإيجاب، ولكن ما يهم هنا هو مشاركة هذا الآخر للفنان في عمله الفني من خلال تذوقه، وقد وضح "ديوي" ذلك من خلال أمثلة واقعية قائلا في ذلك: "حيث نجد فارقا كبيرا بين البستاني الذي يزرع

ويحرث الأرض، وبين رب البيت الذي يستمتع بالنتيجة المحصلة" (ديوي، 2011، ص.84). وكأن "ديوي" هنا يشير إلى عمل الفنان وإرهاقه من أجل إتقان صنعته الفنية على أكمل وجه لتقديمها وعرضها على المتذوق الذي يستمتع بجماليتها وحسنها، كما يشير في نفس السياق إلى أن الإحساس بالجمال التام يحدث من خلال التوافق بين الكائن ككحل (منتج للفن ومتذوق له) مع البيئة ومن خلال ذلك يحدث التوافق والانسجام التام، وهنا يتحقق الجمال الكوني." في كل خبرة عقلية أو عمل من الأعمال التي يقوم بها الإنسان جانب جمالي يرجع إلى الإنسان نفسه والنظام الذي يسير عليه" (جيدوري، 2010، ص. 111)

اشترط "ديوي" على أي عمل فني لكي يكون فنا حقيقيا قائما بذاته، اشترط عليه بالدرجة الأولى أن يكون جماليا ويحقق وظيفة وغاية جمالية، فالناتج الفني يبقى ناقصا مهما دون حكم جمالي، وهنا يبرز دور المتلقي في التذوق وإصدار الأحكام تجاه الأعمال والصور الفنية "والحق أنه إذا أريد للعمل أن يكون فنيا بمعنى الكلمة، فلا بد له أيضا أن يكون جماليا، أعني أنه لا بد أن يصاغ بالصورة التي تجعل منه موضوعا للإدراك المستقبل المتذوق" (ديوي، 2011، ص.85). فلا بد للعمل الفني من ناقد أو متذوق يصححه أو يعطي انطباعا نحوه مطلقا حكما جماليا تجاهه، وهذا من شأنه أن يزيد في قيمة هذا الإنتاج الفني ويساهم في زيادته ورفعته، غير أن الحكم الجمالي لا يمكن أن يكون متاحا للكل أو للعامة من وجهة نظر "ديوي" فلابد من توفر شروط في ذات المتذوق والتي يكون منها إدراك أصول العمل الفني وخصائصه والدراية بأهم نقاط نجاح الصورة الفنية وأبرز نقاط قوتها، فلا يمكن لمتذوق مثلا أن يطلق حكما جمالا تجاه صورة فنية ما خارج اهتمامه أو تخصصه لأن ذلك سوف يضر بجودة وقيمة هذه الصنعة الفنية. "إذا لم يكن إدراكه أيضا جماليا في طبيعته، فإنه لن يكون إلا مجرد تعرف بارد شاحب على ما سبق فعله" (ديوي، 2011، ص.85)

ربط "ديوي" الخبرة الجمالية بمجمل الخبرات اليومية الماضية فهي ليست مستقلة عنها بل ملازمة لها ومتصلة بها وهي مستمرة، ومتعلقة بسلوكيات أو أعمال فنية جمالية ينتجها الإنسان ككل، فهي متواصلة ومتلاحقة لا تعرف الانقطاع "والخلاصة أن الخبرة ليست شيئا مستقلا، فلا توجد خبرة وتنتهي مستقلة بذاتها، بل أن كل خبرة كانت مستقلة كل الاستقلال عن رغبة الفرد وقصده فإنها تخلد بأثرها في غيرها من الخبرات، وهي كالحياة نفسها متصلة النمو وهذا يسلمنا إلى مبدأين أساسيين للخبرة، هما الاستمرار، والتفاعل" (الأهواني، 1968، ص.53). فالخبرات إذن

مترابطة ببعضها البعض وكل خبرة هي استمرار لخبرة سبقتها، وهي بدورها تمهيد لخبرة جمالية تأتي بعدها وهكذا، فلا يمكن عزل الخبرات الجمالية عن بعضها أو تفصيلها وتحديدها، فالخبرات مهما كان نوعها تبقى متصلة ببعضها مهما اختلفت بين الخبرات الفنية، أو الجمالية، أو العقلية، أو الحسية، تبقى كلها خبرات متعقلة بالذات الإنسانية مشكلة لخبرات موحدة يوظفها الإنسان في علاقاته اليومية وفي بيئته وواقعه." ويبقى استمرار الخبرة هو المبدأ الجوهري... لأن تواصل الخبرة في اتجاه معين يؤدي إلى تقوية الميول التي تعمل على كسب خبرات جديدة من جهة إيثار أهداف معينة أو النفير منها " (الأهواني، 1968، ص.54). كما أن تكامل هذه الخبرات الجمالية واستمرارها يحتاج إلى عقل ينظمها ويوظفها في أوقاتها المناسبة وأن لا يكون هناك أي خلط بين هذه الخبرات، لهذا وجب أن يكون هناك تكامل بين ما هو عقلي مع ما هو انفعالي عاطفي، وبين ما هو عملي واقعي، وهذا ما يحقق لنا خبرات جمالية متكاملة ومستمرة ومنتظمة، وهذا بدوره يساهم في تقييم الخبرة الجمالية، كما أن "الاستمرار في الخبرة وتواصل الخبرات السابقة باللاحقة هو الذي يمكن الفرد من الملاحظة والحكم واستخلاص النتائج" (جديدي، 2004، ص.241). وهذا يؤكد على أن الخبرة الجمالية أو الخبرات بصفة عامة لا توجد منعزلة لوحدها بل أن كل خبرة هي نتيجة لخبرة أخرى أو متصلة بها، وهي كلها من مقومات زيادة خبرات ومنافع أخرى للفرد من خلال توسيع فكره ونشاطه وتجاربه وتزيد وتعمق علاقته بالتجربة والواقع.

أشار "ديوي" كذلك إلى دور "الخبرة" في عملية التذوق الجمالي ومدى ربط الأحكام الجمالية بالخبرات السابقة من خلال الرجوع إلى الخبرة المتعلقة بجمالية الأشياء والمواضيع الفنية، فالذات الإنسانية تحتفظ بأحكام جمالية تجاه مواضيع فنية كانت معها تجربة سابقة، وبالتالي تكرار نفس هذا الإنتاج الفني والصور الفنية يجعل من المتذوق لها يصدر نفس الأحكام الجمالية تجاهها متعمدا على خبراته السابقة، وبهذا تكون الخبرة الجمالية هي إحساس الانسان من داخله عما يدور من حوله من انسجام وتوازن بين الظواهر وتناسقها معطيا انطباعه نحوها من أجل تذوقها والإحساس بجماليتها حيث " تنشط هذه النزعة في تحويل الانفعال بالنشوة أو باللذة من الذات إلى الشيء الجميل فنظن أنها صادرة عنه منبثقة عنه، وليست نابعة من ذات الإنسان وكيانه العضوي، وقد يكون الموضوع الذي يثير فيه هذا الإحساس مستمدا من الطبيعة، غير أن الجمال الذي نتحدث عنه في أغلب الأحيان يكون من إبداع الفن الإنساني أي يكون في التعبير الجميل عن الأشياء." (حلمي مطر، 2013، ص.20) وقد تنوعت الخبرات الجمالية حسب مختلف

مناحي الحياة وتخصصت كل خبرة بمجال خاص بها، فهناك خبرات خاصة بالحياة اليومية عامة مثل الحكم على رسم فني أو لوحات فنية أو الاستماع لمعزوفة موسيقية ما، بحيث تلعب الخبرة هنا دورها في الحكم عليها استنادا إلى انطباعات سابقة، وما يميز هذه الخبرة الجمالية أنها أكثر انتظاما وتناسقا عن باقي الخبرات اليومية ذلك لاتصالها بالفن الذي يضفي عليها جماليته وأسلوبه الفني الخاص به، فالخبرة "في الفن تظهر متكاملة متحررة من القيود والعوائق التي تعيق اكتمالها ونموها، فهو يتوج الخبرات بالخبرة الجمالية ". (حلمي مطر، 2013، ص.76). غير أن الحكم الجمالي عند "ديوي" يمكن أن يتغير عندما يرتبط بانفعالات أو مشاعر نفسية معينة فلا يمكن أن نحكم على انفعالات مثل الخوف أو القلق مثلا عن طريق الخبرة لأنه انفعال مفاجئ ومتغير لا تستطيع التجربة أن تعطي حكمها تجاهه، والسبب راجع لكوننا ".... مستغرقين في غمرة الانفعال... فإن الخبرة التي نعانيها تكون عندئذ خبرة غير جمالية قطعا، والسبب في ذلك أنه لا وجود هنا لأية علاقة مشعور بها تربط بيننا وبين كيفيات النشاط الذي ولد الانفعال." (ديوي، 2011، ص.87)

خاتمة:

- الفن عند "ديوي" متصل بحياة الأفراد تابع للبيئة الإنسانية ولدته بعض التجارب اليومية، فلا يمكن دراسة الفن بمعزل عن الإنسان أو عن يومياته ومجتمعه وبيئته، فالفن عنده يعد عنصرا مكملا للحياة وليس بخارج عنها، وبهذا يرفض "ديوي" فكرة الفن للفن، ولا ينكر بأن للفن غايات مادية نفعية يحقق من ورائه الفنان أرباحا مادية.
- يرفض "ديوي" النظر للفن على أنه مقدس وروحي ومنزه عن العالم الواقعي بل يراه ظاهرة متصلة اتصالا وثيقا بالذات الإنسانية التي تنتج وتتذوق الفن وتصدر أحكامها نحوه وتنقده، وقد ربط "ديوي" الفن بالخبرة، ذلك أن الفنان يعيد تجربة نفس الوقائع الفنية ويسقط عليها خبراته وتجاربه السابقة ليجسدها في صور فنية جديدة.
- التعبير الفني عند "ديوي" هو سعي الإنسان للإفصاح عما يختلجه من انفعالات ومشاعر محاولا تجسيدها عن طريق صور فنية واخراجها من ساحة اللاشعور إلى ساحة الشعور بالاعتماد على المواد الخام التي توفرها البيئة، ليحصل في الأخير على عمل فني ومنظر جمالي يقدمه للآخر وللعالم ليتذوقه ويستمع بجماليته. أما الانفعال هو فكرة فنية داخلية تحاول الظهور للعلن أو هو مشاعر وأحاسيس فنية تحاول الخروج والظهور عن طريق عمل فني

مجسد على أرض الواقع، ويكون الفن هو الوسيط الذي يبلور هذه الفكرة ويجعها قابلة للتجسيد مستعينا بالبيئة وموادها الخام.

- أشار ديوي إلى أن الخبرة الجمالية هي خبرة إنسانية بالدرجة الأولى تدخل فيها عدة ملكات من بينها الإدراك والإحساس بمضوع الجمال، كما نوه إلى أن هذه الخبرة الجمالية متصلة بباقي أحداث الحياة الأخرى ليست منقطعة عنها، فهي مرتبطة بالحياة الإنسانية متكاملة ومتجانسة ومتعلقة بها.
- حاول "ديوي" المزواجة بين النافع والجميل ليجعل نظرته لفلسفة الفن والجمال موزاية ومنسجمة تماما مع فلسفته البراغماتية، فالجميل عنده ما ينفع البشرية ويساهم في رفع الغبن عنها ويزيد في منافع الإنسان المعاصر، وبهذا ربط "ديوي" الفن وفلسفته الجمالية بكل ما هو نفعي تجريبي بعيدا عن المثالية والجمود.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أحمد فؤاد، الأهواني.(1968) . *جون ديوي*. القاهرة : دار المعارف.
2. أميرة، حلمي مطر .(2013) .*مدخل إلى عالم الجمال وفلسفة الفن*. القاهرة: دار التنوير للطباعة والنشر .
3. جون ,ديوي. (2011).*الفن خبرة* .القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب.
4. صابر،جيدوري. (2010). الخبرة الجمالية وأبعادها التربوية في فلسفة جون ديوي.. دمشق: كلية التربية.
5. محمد، جديدي(2004) . . فلسفة الخبرة "جون ديوي نموذجا. بيروت :المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع .